الداء والدواء

أدوية من الكتاب والسنة وأن الأمراض لا تعدي بنفسها

خطبة ألقاها

الشيخ أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

يوم ١ صفر ١٤٣٧ بالمدينة النبوية

[الخطبة الأولى]

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهد الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد: فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهُدى هُدى محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار، ثم يا عباد الله:

إن ربّنا سبحانه من حكمته يُنزل الأمراض والأدواء ويبتلي بها، ومن رحمته ينزل الأدوية ويعلّمها من يشاء ويشفي بها، فربنا سبحانه حكيم عليم، ومن حكمته أنه ينزل الأمراض على عباده، ويبتلي بها من شاء من عباده، وذلك لحِكَم عظيمة.

منها: أن يعلم المؤمن أن الدنيا ليست دار صفاء ومقرّ، وإنما هي دار كَدَر وممرّ، فيعيش فيها ولا يعيش لها، ويكون فيها كما قال المصطفى ﷺ: «ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها».

ومن تلك الحِكَم يا عباد الله: أن يعتبر المؤمن بتلك الأمراض وأحوال المرضى، والعاقل -يا عباد الله- من اعتبر بغيره و لم ينتظر حتى ينزل به البلاء، فالمؤمن العاقل -يا عباد الله- إذا رأى الأمراض ونزولها بالناس لا يغترّ بقوّته، ولا يغترّ بعافيته، لأنه يعلم أن القوة قد يُزيلها الضعف، وأن العافية قد يَعقُبها البلاء، فلا يتكبّر ولا يتجبّر، بل يكون مُتذلّلاً لله، متواضعًا لخلق الله.

كما أنه يعلم -يا عباد الله- أنه لا يدري متى ينزل به البلاء، فقد يكون البلاء أقرب إليه مما يظن، قد يكون وراء الباب، كيف لا يكون ذلك كذلك وهو يرى أحبابه وأقرباءه يخرج الواحد منهم من بيته قويًّا مُعافى، ويعود إلى بيته مريضًا مشلولاً ضعيفًا؟

وإذا علم المؤمن ذلك -يا عباد الله- فإنه يحرص على أن يأخذ من قوّته لضعفه، ومن عافيته لمرضه، بالحرص على ما يُرضي الله والتقرب إلى الله ﷻ بما يستطيع وهو صحيح قوي.

ومن تلك الحِكَم يا عباد الله: أن المؤمن إذا رأى الأمراض وما تُحدِثه للناس من ضعف، وأنهم يحتاجون إلى غيرهم، علم أنه قد يكون في يوم من الأيام مريضًا ضعيفًا يحتاج إلى غيره، يحتاج إلى من يُعاوِنه، يحتاج إلى من يَرفُق به، ولا يدري متى ينزل به البلاء، ولِمَن يحتاج من أقاربه ومَن حوله، فيحرص في حال قوّته وفي حال صحّته على أن يكون قريبًا من أقربائه حبيبًا إليهم، يتقرّب إليهم ويتحبّب إليهم، ويبتعد عمّا يقطع الصلة بهم، لأنه يعلم أنه بهذا يُرضي الله ويَصون نفسه إذا احتاج إلى غيره، فيُكرمه من أحبّهم حال قوّته وحال صحّته.

ومن تلك الحِكَم يا عباد الله: أن المؤمن إذا رأى أخاه المُبتلى دعا له وشكر الله ﷻ على العافية، وله في دعائه لأخيه خير عظيم، وله في شكره لربّه خير عميم.

وحِكَم هذا الأمر -يا عباد الله- كثيرة جدًا، أقتصر منها على ما أردت بيانه.

وإن ربنا سبحانه رحيم رحمن، ومن رحمته -يا عباد الله- أنه ما أنزل داء إلا أنزل له دواء، فلكل داء دواء، يقول النبي ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»، ويقول ﷺ: «إن الله لم ينزل داء إلا وأنزل معه دواء، علمه مَن علمه، وجهله مَن جهله».

ولذا أَمرَنا النبي ﷺ أن نتداوى، وأن نطلب الدواء، قالت الأعراب لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا نتداوى؟ فقال ﷺ: «نعم -يا عباد الله- تداوَوا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً، إلا داءً واحدًا»، قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال ﷺ: «الهَرَم»، يعني ضعف الكبير إذا كبر سنّه.

وإن الله عزو جل الكريم قد أعلم أمة محمد ﷺ في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بأدوية خمسة نافعة عامة، تنفع بأمر الله ﷻ من كل داء، وتنفع في الوقاية من الأدواء بأمر الله ﷻ.

أولها: كتاب الله ﷻ، كلام ربنا، القرآن.

فإن الله ﷻ أنزل القرآن وجعله مُعجزًا، ومن معجزات كلام ربنا ﷻ أنّ له تأثيرًا عظيمًا على الأمور الحسّيّة، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، ولذا كان النبي ﷺ يَرقِي نفسه بالمعوّذات، وبالقرآن، وأَمَر بالرُّقية.

وعلم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك، فهاهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في سفر، فمرّوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فلم يضيّفوهم، ثم قال أهل الحي لهم: هل معكم من راقٍ؟ فإن سيد الحي لديغ، فقال رجل منهم: أنا، فقام معهم، فرقاه بالفاتحة، فبرأ الرجل، فأعطوه قطيعًا من الغنم، فأبى أن يأخذها، وقال: حتى أذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فلما قدم على النبي ﷺ أخبره بذلك، وقال: ما رقيته إلا بالفاتحة، فتبسّم النبي الكريم ﷺ وقال: «وما أدراك أنها رُقية؟ خذوا منهم واضربوا لي معكم بِسَهم».

ولا زال المؤمنون يَعلمون أن في القرآن شفاء للأمراض الحسّيّة والمعنويّة، وقد جرّب العلماء والعامة ذلك الأمر، فوجدوا له تاثيرًا عجيبًا.

وأما الأمر الثاني من الأدوية العامة النافعة: فهو الدعاء.

فالدعاء -يا عباد الله- سلاح المؤمن معافًى كان أو مبتلًى، ومَن رزقه الله ﷻ الدعاء وصبّره على لزومه فقد رزقه سبب السلامة، يقول النبي ﷺ: «لا يَرُدّ القضاء إلا الدعاء»، ويقول ﷺ: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل»، فعليكم بالدعاء عباد الله.

والنبي ﷺ سُحر، سَحره رجل من اليهود، فكان النبي ﷺ يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء من أمور الدنيا وهو لم يفعله، وإن النبي ﷺ في ذات ليلة دعا، ثم دعا، ثم دعا، ثم قال لأمّنا عائشة رضي الله عنها: «أشَعَرتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيته؟»، فأَطْلَع الله ﷻ نبيه ﷺ على السحر ومكانه، فعافاه الله منه.

فالدعاء، ثم الدعاء، ثم الدعاء، والصبر على هذا -يا عباد الله- من أعظم أنواع الأدوية التي إذا فعلها المؤمن رُزق الشفاء بإذن الله وبأمر الله ﷻ.

ومن تلك الأدوية النافعة العامة: شرب ماء زمزم.

فإن النبي ﷺ قد قال عن ماء زمزم: «إنها مباركة»، وقال ﷺ: «ماء زمزم لما شُرب له»، وقال ﷺ في زمزم: «إنها طعام طُعم وشفاء سُقم».

وقد جرّب الناس التداوي بماء زمزم فوجدوا لذلك تأثيرًا عجيبًا، حتى ما يذكر الأطباء أنه من الأمراض المستعصية التي لا يعلمون لها شفاء ولا دواء، فإن الله ﷻ جعل في ماء زمزم من البركة ما يُذهِب تلك الأدواء جميعها.

وأما الدواء الرابع الذي جعله الله ﷻ دواء نافعًا عامًّا صالحًا لكل زمان ومكان: فهو شرب العسل.

فإن الله ﷻ بأمره وقَدَره جعل النحل يُخرج شرابًا ألوانه مختلفة، لكنه يشترك في أمر واحد، ألا وأنّ فيه شفاء للناس، فتلك النحل ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ﴾ [النحل:٦٩]، ونبينا ﷺ قال: «الشفاء في ثلاث، شَرطَة مِحجم، وشَربَة عسل، وكَيَّة نار، وأنا أنهى أمتي عن الكيّ».

وأما خامس الأدوية النافعة العامّة التي تنفع في جميع الأدواء: فهو الحبة السوداء.

فإن النبي ﷺ قال: «الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام»، يعني إلا الموت، يعني إلا أن يقضي الله على العبد أن يموت، فإنه لا ينفع مع ذلك الدواء.

هذه الأدوية الخمسة -يا عباد الله- نافعة للعبد في علاج جميع الأمراض بلا استثناء، كما أنها نافعة في الوقاية من الأمراض، سواءً استعملها العبد مُفرَدة أو جَمَعَها مع بعضها، فلو أن العبد -يا عباد الله- أخذ شيئًا من ماء زمزم، ووضع فيه شيئًا من العسل، وقرأ عليه من القرآن، ودعا بالأدعية المباركة، ونفث في ذلك الماء، وتناول شيئًا من الحبة السوداء، فإن ذلك من أعظم ما ينفعه في الوقاية من الأمراض وفي الشفاء من الأمراض الواقعة.

فالحمد لله ثم الحمد لله ثم الحمد لله الذي جعلنا مسلمين، ودلّنا على ما ينفعنا في أمور الدنيا والدين.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد فيا معاشر المؤمنين:

إن المؤمن يعلم ويعتقد أن الأمراض إنما هي بأمر الله، تنزل بأمر الله، وتصيب من يشاء الله ﷻ أن تصيبه، فهي لا تضرّ بنفسها، ولا تُعدي بنفسها، ولذا قال النبي ﷺ: «لا عدوى ولا هامَة ولا صفر»، فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كالظباء، فيجيء البعير الأجرب فيَدخل بينها فيُجْرِبها كلها؟ فقال ﷺ جوابًا حكيمًا: «فمن أعدى الأول؟»

هذا البعير الأجرب الذي جاء ودخل بين تلك الإبل وأجربها كلها، من الذي أعداه؟ إنما الأمر بأمر الله ﷻ.

وإن المؤمن -يا عباد الله- إذا علم هذا فإنه يتوكل على الله ﷻ ظاهرًا وباطنًا، ولا يُعذِّب نفسه بالخوف من الأمراض، فإن من عباد الله من يُعذِّب نفسه بالخوف من الأمراض، فيعيش قَلِقًا مضطربًا خائفًا من الناس، إذا سلّم عليه رجل أحسّ أن أنفه يُحرِقه، وإذا جلس مع رجل أحسّ أن بطنه يؤلِمه، وهكذا، لأنه لم يتوكل على الله، ولم يَعلم أن هذه الأمراض لا تُصيب إلا بأمر الله ﷻ، ولو أنه أيقن هذا لارتاح ودفع عن نفسه هذه الوساوس وهذه المخاوف.

وإن المؤمن مع ذلك -يا عباد الله- يعلم أن الله ﷻ بأمره وقَدَره قد يجعل لانتقال الأمراض أسبابًا يُجريها إن شاء ﷻ، فيتّقي تلك الأسباب، ولذا قال النبي ﷺ: «لا يُورِد مُمرِض على مُصِحّ، لا يُورِد مُصِحّ على مُمرِض»، بمعنى أن الإنسان إذا كان صحيحًا وكان هنالك مريض عُلم أن مرضه ينتقل لا يذهب إليه، وإنما يتخذ الأسباب التي يتّقي بها ذلك المرض، ولا بأس من عيادة المريض بل هذا مشروع، إلا إذا عُلم أن في هذا ضررًا، فإنه يُتّقَى.

وقال النبي ﷺ جامعًا بين النهي عن العدوى وعن اعتقاد أن العدوى تُعدي بنفسها وبين اتخاذ الأسباب، قال ﷺ: «لا عدوى، ولا صفر، ولا هامَة، وفِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»، فقال النبي ﷺ في قول واحد هذين الأمرين، «لا عدوى» و«فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»، وبذا علمنا أن المقصود بالنفي أنها لا تُعدي بنفسها، وهذا لا ينفي أن تكون للأمراض أسباب تنتقل بها الأمراض إلى الناس.

وقد طبّق النبي ﷺ ذلك بنفسه، فإن النبي ﷺ قَدِم عليه وفدُ ثقيف، وكان فيهم رجل مجذوم، فبعث إليه النبي ﷺ أنْ بايعناك فارجع، فأرسل إليه النبي ﷺ بأنه قد بايعه، ومنعه من القدوم عليه خشية العدوى بسبب وجوده في المدينة.

وطبّق ذلك صحابة رسول الله ﷺ، فإن عمر بن الخطاب ﷺ ذهب إلى الشام ومعه خيرة أصحاب رسول الله ﷺ، فبلغه أن الطاعون قد وقع في الشام، فاستشار الصحابة رضوان الله عليهم فاختلفوا، منهم من أمره بالقدوم، ومنهم من أمره بالرجوع، ثم إنه قد هداه الله إلى أن يرجع، فلما كان ذلك كذلك جاء عبد الرحمن بن عوف ﷺ -وكان غائبًا عن القوم- فقال: إن عندي علمًا من رسول الله ﷺ بهذا، قال ﷺ: «إذا نزل الطاعون بأرض فلا تَقدُموا عليها، وإذا كنتم بها فلا تخرجوا منها».

فإن قال لنا قائل: أنَا لا أفعل الأسباب الوقائية لأن هذا قدر الله، وقدر الله واقع لا محالة، قلنا له: إن فعل الأسباب من قدر الله، ولذا لما عزم عمر ﷺ على الرجوع إلى المدينة وعدم الذهاب إلى الشام بسبب وجود الطاعون في الشام قال أبو عبيدة ﷺ لعمر ﷺ: أتَفِرُّ من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال ﷺ: نفرّ من قدر الله إلى قدر الله.

وجاء في حديث فيه ضعف -وحسّنه الشيخ الألباني لغيره في بعض المواطن- أن النبي ﷺ سُئل، فقيل: يا رسول الله، أرأيت أدويةً نتداوى بها، ورُقًى نسترقي بها، وأشياء نفعلها، هل تَرُدّ من قدر الله؟ فقال ﷺ: «هي من قدر الله».

فالمؤمن -يا عباد الله- يتوكل على الله ﷻ، ويعلم أن الأمراض لا تُعدي بنفسها، وإنما هي بأمر الله ﷻ، ومع ذلك يتخذ أسباب الوقاية والبعد عن الأمراض.

وإن الناس في هذه الأيام يُعانون من أمراض الإنفلونزا بأنواعها، وإن الحكومة المباركة قد وفّرت للناس لقاح الإنفلونزا، ووفّرته في المستوصفات والمستشفيات، فيَحسُن بالمؤمن -يا عباد الله- أن يتّخذ هذا اللقاح، وأن يستعمله وهو متوكّل على ربّه من قبل ومن بعد.

فالحمد لله الذي جعلنا مسلمين وأكرَمنا بهذا الدين.

ثم اعلموا -رحمني الله وإياكم- أن الله أمرنا بأمر عظيم نشرف بفعله، وتزكو أنفسنا بقوله، ألا وهو الصلاة والسلام على النبي الكريم، فإن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب:٥٦].

وقال ﷺ: «من صلّى عليّ صلاة واحدة صلّى الله عليه بها عشرًا».

فاللهمّ صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وسلم تسليمًا كثيرًا، وارض اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارض اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارض اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارض عنّا معهم بمنّك وكرمك يا أكرمك الأكرمين، اللهمّ إنا نحبّهم فقرّبنا إليك بحبّهم يا رب العالمين.

اللهمّ يا ربنا، يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تحفظ جَمْعَنا، وأن تحفظ مدينتنا، وأن تحفظ بلادنا، وأن تحفظ بلاد المسلمين، من كل سوء يا رب العالمين.

اللهمّ يا ربنا، إنا عباد من عبادك، ضعفاء مذنبون، قد اجتمعنا في بيت من بيوتك، نرجو رحمتك ونخاف عذابك، اللهمّ فأعطنا ما نرجو وأمّنّا مما نخاف يا رب العالمين.

اللهمّ إن أجسادنا على النار لا تقوى، اللهمّ إن أجسادنا على النار لا تقوى، اللهمّ إن أجسادنا على النار لا تقوى، اللهمّ فزحزحنا عن النار يا رب العالمين، اللهمّ فزحزحنا عن النار يا رب العالمين، اللهمّ فزحزحنا عن النار يا رب العالمين.

إلهنا، إننا أذنبنا وأكثرنا وأسرفنا وأثقلَتْنَا ذنوبُنا يا رب العالمين، اللهمّ فاغفر لنا يا غفور، اللهمّ فاغفر لنا يا غفور، اللهمّ فاغفر لنا يا غفور.

اللهمّ ارزقنا توبة ترضى بها عنا يا رب العالمين، اللهمّ ارزقنا توبة ترضى بها عنّا يا رب العالمين، اللهمّ ارزقنا توبة ترضى بها عنا يا رب العالمين.

ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات يا رب العالمين.

اللهمّ إنا ظلمنا أنفسنا ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لنا مغفرة من عندك وارحمنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

اللهمّ ارزقنا الجنة، اللهمّ ارزقنا الجنة، اللهمّ ارزقنا الجنة، اللهمّ ووالدينا والمسلمين يا رب العالمين.

اللهمّ كما جمعتنا في هذا المسجد المبارك، في هذه الصلاة المباركة، اجمعنا ووالدينا وأهلنا ومن نحب في الفردوس الأعلى أجمعين، اللهمّ لا تحرم منّا أحدًا، اللهمّ لا تحرم منّا أحدًا، اللهمّ لا تحرم منّا أحدًا.

يا كريم أكرِمنا، يا كريم أكرِمنا، يا كريم أكرِمنا.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا وسلم.